أنه جاوز الأربعين، إلّا أنه ظل عازباً، غارقاً في وحدته. ونكتشف في النهاية أنه: «فقد زوجته وولديه في معركة يافا.. وكاد يجن.. وهرب مع من هرب، وبقي كالمعتوه شهوراً..».

وفي قصة «مكان البطل»، يبدو الموت قدراً لا يرد. فأمام عدو متفوق بالسلاح وبالعدد، تصبح المقاومة قبولاً بالموت. ولكن موت «جبر» الذي قاوم تقدم الدبابات الاسرائيلية، يظل حياً: «كان ابراهيم يستدعي دوماً سالم واخوته ليذكرهم بوالدهم جبر.. البطل الذي منح الحياة لزملائه نظير موته».

وكمال يحطم أطباق المطعم الذي كان يعمل صبياً فيه، ليعمل صبي نجار، في قصة «النجار الصغير». لقد كان أبوه نجاراً قبل أن يستشهد وهو يحارب اليهود. استشهاد أبيه، هو الذي يحدد فعله، ومسيرة حياته.

وفي قصة «أفاعي الماء» نلتقي بالشاب الذي يبحث عن سبب مقتل أخيه. لقد مات الأخ تحت التعذيب في أحد سجون الاستخبارات، ثم صدمته سيارة ــ بعد موته ــ لإخفاء آثار التعذيب.

وفي قصة «سلة الملوخية» تصبح كومة الملوخية دون وجود لحم تطبخ معه: «ممددة في وسط الغرفة، على الحصيرة البالية، وكأنها جثة فقير معدم، تنتظر صدقة البلدية لتجهيزها ودفنها...».

وموت هذه الجثة، ككل الموت في قصص المجموعة، يمارس حياة تزحف على الأحياء، محاولة إزهاق أرواحهم:

«وشعرت بالجثة الممددة على الحصيرة، تتمطى، ثم تنساب سابحة حتى تصل رقبتي المنحنية، فتمد أصابع معروقة، مرتعشة، فتطبق على رقبتي بقوة وإصرار، وأحسست باختناق مفاجيء...».

ان استعادة القصص السبع الباقية تؤكد هذه الموضوعة، أعني موضوعة الموت. ان الجديد، الذي تضيفه، هو تكوين هذا الموت، وتنويع أشكاله. إنه ذكرى الأب الذي مات، والذي ما تزال ذكراه حية، واحباط لمشروع زواج حبيبين، حيث تقتل الحبيبة بفعل القنابل الاسرائيلية المتساقطة، انه توق واشتياق للتخلص من مأزق التفاهة:

«ولكن خوراً لذيذاً يسري الآن في أوصالي.. انه يطرد الألم يجتثه.. وألف وألف برعم ورد تنمو في جسدي المشتعل.. والهاوية تبتسم، والدنيا تظلم».

إنه هو الذي ينتظر الفدائي تحت الجسر..

فما هي معطيات هذا الموت؟ كيف تكون، وما هي العناصر التي شكلته؟

انه هذا الحصار الذي يحيط بالفلسطيني من كل جانب، فهوالجوع: يسأل أبوخميس في قصة «الخبز المر»: كم سنة يمكن أن يعيش المصدور؟ إنه مصدور بالسل، ولكن قدر الجوع يقوده الى الموت قسراً: «.. ما الذي سيفعله الطبيب؟ .. سيحولني الى مستشفى